بعض ملامح الاتجاهات الرئيسة في الاستشراق

د. أحمد درغام
جامعة دمشق

نقول : شـرّق : اتجه الى الشرق وأشرقت الشمس طلعت وأضاءت والشرق ج أشراق نقطة الافق التي تطلع فيها الشمس في بدء الربيع والخريف وبالتوسع جهة الافق التي تطلع منها الشمس على مدار الايام . المَشرِق والمَشرَق والمشرّق ج مشارق مكان أو جهة شروق الشمس . والمشرقان والمغربان مشرقا الصيف والشتاء والمشارق والمغارب اختلاف مواضع شروق الشمس وغروبها لانها تشـرق كل يوم في موضـع وتغرب في موضع الى انتهاء السنة . المستشـرق العالم باللغات والآداب والعلـوم الشرقية والاسم : الاستشراق .

خلفيـة تاريخيـة

ارتبطت حركة الاستشراق بشكلها الثقافي مـع حركـة الاسـتشراق بشـكلها السياسي العسكري ، حيث كانت الحملات الصليبية نواتها الاولى . وهذه الحملات وان قامت تحت راية الدين شكلا فان مضمونها الاقتصادي والسـياسي والعسكري عبّر عن التوجه الاوربي لاستغلال الشـرق العربي ونهبه . غير أن الصلة بين الثقافة العربية الاسلامية والثقافة الاوربية كانت قد انعقدت قبل الحركة الصليبية ، وذلك

من محاضرة القيت في كلية الاداب بجامعة دمشق .

اثناء الحروب العربية ـ البيزنطية ، وخلال الوجود العربي في كل من الاندلس وصقلية ، الامر الذي ميز حركة الاستشراق منذ الغزوات الصليبية للشرق بظاهرتين:

اولاهما انها اصبحت على اتصال مباشر بالاصول التي لم تكن قد انتقلت قبل ذلك الى الغرب الاوروبي .

والثانية انها اخذت تندفع بمهماتها على خطين متوازيين ومتشابكين : خط سياسي استعماري، وخط آخر يتصل بما تركته المدارس الصقلية والاندلسية ،لدى المثقفين والمفكرين والعلماء الاوربيين ، من رغبة في الاطلاع على المزيد من مصادر الحضارة العربية ومنجزاتها في مختلف فروع المعرفة ، حيث ازدهرت حركة التثقيف الاوربي ، وعلى مدى نحو قرنين (١٠٩٧ ـ ١٢٩١م) بالثقافة العربية ، وحركة نقل منجزات هذه الثقافة الى اللاتينية ، وتأثر المدارس والمذاهب الفلسفية الاوربية بالفلاسفة العرب ، كالكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد

بدا نشاط الدراسات الاستشراقية الغربية لتراثنا الحضاري بشكل واضح وناشط في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وازداد فاعلية في الربع الاول من القرن العشرين، مع أن حركة الاستشراق كان قد مضى علىظهورها زمن يعد بالقرون كما ذكرنا منذ حين . ان هذا الواقع مرتبط بظروفه التاريخية وأسبابه المعينة ، ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت الرأسمالية على عتبة التحول الى عصرها الجديد ، الى تطورها الى أعلى مراحلها : مرحلة الامبريالية ، أي عتبة تحول نظام المنافسة الحرة الى نظام تمركز الاحتكارات الذي دفع بالرأسمالية الى التطور نحو شكلها الجديد ، واعادة تقسيم العالم ، والصراع بين الدول الامبريالية من أجل اعادة التقسيم الذي يضمن لتلك الاحتكارات مواطن خارجية لتوظيف الرساميل المالية ، ومصادر للخامات وأسواقا للتصريف. ان مقدمات هذا التحولالرأسمالي كانت تشتد بروزا وحدة في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وحدث التحول فعلا في مستهل القرن العشرين . في هذه الظروف ذاتها وللاسباب ذاتها كانت الامبراطورية العثمانية المتداعية ـ بما تحتويه ضمن سيطرتها من أقطار عربية ـ أحد مدارات هذا الصراع بين الدول الامبريالية ، لما يتمتع به الوطن العربي من خصائص ومزايا فعلية وواعدة مثيرة لشهوات الاحتكارات الامبريالية وملائمة لاستراتيجياتها الاقتصادية والسياسية .

في سياق هذا التحول نحو عصر الاقتسام الجديد للمستعمرات القديمة والتسابق للاستيلاء على معسكرات جديدة في ركاب الاحتكارات الكبرى ، بدأت حركة

الاستشراق اتجاهها الجديد نحو الدراسات العربية ـ الاسلامية . وفي راينا انه لا يجوز الفصل بين اشتداد نشاط الدراسات الاستشراقية ومطلع عصر الامبريالية . فاذا نظرنا الى هذه الدراسات منعزلة عن بدايتها التاريخية مجردة عن الظروف الاجتماعية الاقتصادية في بلدان أصحاب هذه الدراسات ، نكون قد وضعنا المسألة وضعا تجريديا لا علميا .

فمما لا ريب فيه أن التوجه الامبريالي نحو السيطرة على الوطن العربي يتطلب توجها تابعا له يسير في خطه نحو السيطرة على الثقافة العربية ، أي التحكم باتجاهاتها الحديثة على نحو يضمن سيطرة الامبرياليين سياسيا واقتصاديا وفكريا على الوطن العربي والمجتمع العربي . فأخذت حركة الاستشراق وفق مضمونها هذا تفسر التاريخ والتراث العربي تفسيراً غيبيا وقدريا واسطوريا،معتمدة الرؤية المثالية الذاتية في تحليل الظواهر الاجتماعية وتفسيرها بهدف دعم السيطرة الامبريالية بقواعد فكرية وايديولوجية ، ومكونة « مجموعة » من المفكرين والمثقفين العرب من أصول برجوازية واقطاعية تولت مهمة ترسيخ هذه القواعد في البنية العقلية للمجتمع العربي . ولئن استمرت حالة الاندهاش والانبهار الحضاري والتقليد في أساليب البحث بين أوساط المثقفين العرب فترة من الزمن وفق قانون التطور المتفاوت ، والذي يعني أن الاكثر حضارة يفرض ملامح وجوده وشروطه على الاضعف ، فان لفيفا من المثقفين العرب تجاوز مرحلة الاندهاش الى مرحلة الممارسة .

ولعل د. طه حسين وأحمد أمين واسماعيل مظهر وغيرهم أجرأ من اقدم على الخروج على الطرائق الوصفية الانشائية ، على الرغم من أنهم لم يخرجوا عن اطار الفكر المثالي حسب المنهج الاستشراقي .

أبرز اتجاهات الاستشراق الرأسمالي أو مواقف المستشرقين

أولا ـ الاتجاه القائم على **نظرية الجنس** ، أي دراسة الحضارة والتراث من وجهة نظر عرقية . وهذا يعني النظر الى العرب بوصفهم شرقيين في مقابل الغربيين. ويتضمن هذا الاتجاه أن الشرقيين عموما والعرب خاصة محكومون بالقصور العقلي ، أو أن عقليتهم غير قادرة على التفكير التحليلي أو التركيبي ، وبصورة عامة تتصف آفاقهم النظرية بالروحيات بمعناها الغيبي الاسطوري... الى غير ذلك من الافتراضات اللاعلمية في تصنيف شعوب العالم وتمييز بعضها عن بعض ، على أساس القابليات المعرفية بحكم التكون الطبيعي .

يمثل هذا الاتجاه الوجه الايديولوجي الاكثر عداء لتطور الشعوب والاكثر تمثيلا للمطامح الامبريالية عدا عن كونه معاديا للعلم وللواقع الفعلي لحركة التطور الاجتماعي على المستوى العالمي . ويحرص هذا الاتجاه على وضع جدار قدري جبري مغلق لا منفذ فيه أمام الشعوب المستعمرة كي تغير واقعها المتخلف الى واقع متقدم موحيا اليها بأن هذا الجدار القدري الجبري تجسيد لطبيعتها القاصرة والعاجزة أبديا عن تجاوز واقعها .

يتجلى هذا الاتجاه في الدراسات الاستشراقية بأشكال مختلفة نذكر منها : أبحاث المستشرق الالماني البرجوازي هنريش بكر (١٨٨٦ – ١٩٣٣ م) والفيلسوف الفرنسي أرنست رينان (١٨٢٣ – ١٨٩٢) حيث وضع نظرية الجنس كأساس مباشر لاحكامه المعروفة على « الفلسفة العربية » وخرج بنظريته القائلة : بأن الجنس السامي ادنى مرتبة من الجنس الآري . ويقصد بالجنس السامي العرب تحديدا ، وبالآري الاوربي . وغني عن القول أن نظرية الجنس هذه أصبحت فيما بعد الاساس النظري والايديولوجي للنازية الهتلرية المعادية للعلم وللانسان وللحضارة البشرية .

ان تقسيم البشر على أساس الجنس والخصائص العنصرية مسألة اصبح بطلانها من بدهيات العلم المعاصر (معروف أن الصهيونية العالمية تبني ايديولوجيتها على أساس الجنس أو العرق) .

ثانيا – الاتجاه القائم على **نظرية مركزية الفلسفة** في الغرب دون الشرق . وربما كانت هذه شكلا آخر لنظرية الجنس ، ولكنه شكل متميز . فان نظرية مركزية الفلسفة ترجع من حيث جذورها المعرفية الى ما هو ملحوظ اثناء دراسة تاريخ الثقافة البشرية ، من أن وحدة هذه الثقافة تظهر بأشكال تبدو متناقضة ، لذا يسهل جدا اضفاء الطابع المطلق على الخصائص المميزة لكل الثقافات ، واضفاء الطابع المطلق أيضا على الفوارق بين هذه الثقافات بحيث يمكن أن تبنى على هذا الاساس نظرية كاملة . ووفق هذا يجعل أنصار « المركزية الاوربية » صفة التناقض بين التفكير الشرقي والتفكير الغربي قائمة ، ويهملون طابع الوحدة في طرق التفكير البشري ويضعون فوارق كائنة بينها فعلا . (ان الحديث الآن أيضا يجري عن مركزية غربية تشمل أوربا الرأسمالية وأمريكا الرأسمالية) .

ان نظرية المركزية تقوم على جذور طبقية أي على أساس ايديولوجي . ذلك ان الرأسمالية المتطورة تحتاج الى تبرير فكري ايديولوجي لسيطرتها في آسية وافريقية . اذ يجد الاوربي العقلاني أو الامريكي البراغماتي تبريرا لسيطرته على الآسيوي

اللا عقلاني أو الزنجي الذي لا يمكن أن تقوم فيه « روح طيبة » كما يقول بعض المستشرقين الاستعماريين .

ثالثا ـ الاتجاه الثالث للدراسات الاستشراقية **اتجاه رجعي محافظ** يقصر عنايته على الجوانب الاكثر محافظة ورجعية في موضوع التراث ، وهو الاكثر اغراقا في الغيبيات وفي عالم المطلق ، مع طمس الجوانب ذات النزعات المادية أو اخفاء الابعاد الاجتماعية الكامنة حتى في الاشكال الغيبية ، كآثار التصوف الفلسفي عند أمثال الحلاج والسهروردي الشهيد ورابعة العدوية شهيدة العشق الالهي . بل لقد حاول الكثير من هؤلاء المستشرقين توجيه المنظومات الفلسفية لامثال الفارابي وابن سينا وابن رشد توجيها يصرفها عن ابعادها المادية ويفرغها من هذه الابعاد ، لتصبح منظومات صوفية أو اشراقية أو دينية . فنجد مثلا المستشرق **كارادي فو** يحاول ارجاع فلسفة الفارابي العقلانية الى فلسفة صوفية ، ونجد المستشرق **ماسينيون** يحسب الكندي والفارابي وابن سينا في عداد المتصوفة، ويعتبر المستشرق **جيلسون** ابن سينا مؤسسا لنظرية الاشراق .

ان الجمع بين الشرق والغرب على الفكر الغيبي اللا علمي هو الامر الجوهري ايديولوجيا للامبريالية ، كما أن التمييز المطلق بين الشرق والغرب هو الامر الجوهري ايديولوجيا للرأسمالية ، بمعنى ان هذا الجمع وهذا التفريق يلبيان مطامح ومصالح قوى اجتماعية معينة في مرحلة تاريخية معينة ، ان الهدف الاساس من هذه المواقف كلها اخفاء كل ما يشير الى علاقة ما في الاعمال الفكرية بواقع الصراع الطبقي كمؤشر لاتجاه التطور الاجتماعي ومحدد اياه .

ونحن لا ننكر أن الحضارة العربية ،ولا سيما شكلها الفلسفي ، كانت ذات مظاهر دينية . فالواقع أنها ارتبطت بالتاريخ الديني كغيرها من حضارات القرون الوسطى . ولكن هذه الميزة الواقعية لا تخفي النزعات العقلية الواقعية . وقد استطاع فلاسفة القرون الوسطى أن يبرزوا ميولهم الفكرية والفلسفية من خلال الاشكال الدينية على نحو واضح حينا وعلى نحو مرموز أحيانا أخرى .

رابعا ـ الاتجاه الرابع وهو **الاتجاه الايجابي** ، او الاتجاه الموضوعي أو العقلاني في الدراسات الاستشراقية لتراث الشرق . لقد سيطرت الاتجاهات الثلاثة السابقة على هذه الدراسات ولكن لا بد من الاعتراف بأن سيطرتها لم تكن مطلقة . فثمة مباحث استشراقية مهمة عالجت التراث من مواقف هي الى النظر الموضوعي أقرب منها الى الانسياق مع النظر الحزبي المتأثر باتجاهات الايديولوجية الامبريالية .

ويتصف بعض هذه المباحث بمنهجية علمية وبنظرة تاريخية سليمة .. بين هؤلاء الباحثين مستشرقون برجوازيون ومستشرقون ماركسيون .

يقول العالم الفرنسي بول ماسون ـ أورسيل في دراسته لفلسفة الشرق معارضا فكرة « نظرية مركزية الفلسفة » : « لا يوجد في هذه الايام انسان يستطيع الاعتقاد بأن اليونان وروما وشعوب أوربة في العصور الوسطى والحديثة هم دون سواهم أرباب التفكير الفلسفي . ففي جهات أخرى من الانسانية سطعت عدة مواطن للتفكير المجرد وظهرت أشعتها جليا وانتشرت في أنحاء العالم . وبما أن هذه المواطن لم تكن منفصلة بعضها عن بعض كما ظن في الماضي فيجب الاعتراف بأن تفكير الغرب لا يكفي بنفسه ، فتفسيره التاريخي يتطلب اعادة وضعه في وسط انساني واسع النطاق لان التاريخ الصحيح هو وحده التاريخ العالمي » (بول ماسون ـ أورسيل « الفلسفة في الشرق » ص ١٦) .

وحاول عالم الاستشراق الكبير هاملتون جب حول التفكير العربي والعقلية العربية تلمس بعض التفسيرات الواقعية للتاريخ الاسلامي في مثل قوله « ظهرت للاسلام ملامح مختلفة في مختلف الازمنة والامكنة بتأثير العوامل المحلية : الجغرافية والاجتماعية والسياسية فيه » (جبّ ، دراسات في حضارة الاسلام ص ٣) .

ويبرز اسم المستشرقة الفرنسية **غواشون** من حيث الموقف حيال التراث العربي ايجابيا بوصفها باحثة فلسفية دقيقة الاستيعاب لنصوص الفلسفة العربية الاسلامية، فتكتب عن ابن سينا : « انه ليس عند ابن سينا من حقيقة الا في الوجود فالماهيات التي لم تستقبل الوجود بعد هي باطلة في ذاتها » و « ان عقل ابن سينا العظيم قد وضع نفسه في نقطة يظهر فيها انتاجه كلا واحدا متماسك الاجزاء » وانه « انتاج بعيد جدا عن أن يكون مجرد نقل لنظريات أرسطية الى اللغة العربية » . (غواشون « فلسفة ابن سينا » ص ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥٤) .

الدراسات الاستشراقية الماركسية

انطلق المستشرقون الماركسيون في دراساتهم الاستشراقية من أساس مادي تاريخي من حيث المنهج ، وعلى أساس الاشتراكية العلمية من حيث الايديولوجية . الامر الذي لا نجد في دراساتهم لتراثنا تلك الوجوه السلبية الجوهرية التي وجدناها

لدى المستشرقين والباحثين الذين شكلوا أو كانوا « ورشة عمل » لدى الدوائر الاستعمارية الامبريالية .

يتخذ المستشرقون الماركسيون الموضوعة الماركسية أساسا لدراساتهم ، والقائلة بأن تاريخ تطور المجتمع البشري مرّ ويمرّ بمراحل يحدد كل مرحلة منها شكل من أشكال العلاقات الاجتماعية الممثلة لانماط من الانتاج المادي تتعاقب وتتداخل في خط تصاعدي متعرج . وذلك بناء على أن علاقات الانتاج المادي هي العامل المحدد لسير العملية التاريخية ، من عصر العلاقات المشاعية البدائية الى عصر العلاقات العبودية، فعصر العلاقات الاقطاعية فالعصر الرأسمالي ، ثم عصر الاشتراكية فالشيوعية العليا . وهذا ما يعبر عنه بموضوعة **التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية .**

ويمكن القول : ان مختلف الدراسات الماركسية في موضوع التراث يتفق مع الخط العام للتوجهات التقدمية والديمقراطية لحركة التحرر العربية في مرحلة تطورها الحاضرة ، ومع ايديولوجية القوى الطليعية لهذه الحركة . ذلك بعد أن كانت السيطرة المطلقة في مجال معرفة التراث للدراسات الاستشراقية الرأسمالية التي يتعارض معظمها ويتناقض مع هذا الخط .

* * *